المستمعين ؛ او عند متكلم آخر ، مرة اخرى ، فالكلمة كالدرهم الذي يحتفظ بقيمته التداولية سواء انتقل الى بائع والى مشتر ، أو لم ينتقل « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة »

فالبحث فى الكلمات من حيث تركيبها المادي ، ومدلولاتها المحسوسة ، وآثارها النفسانية ، يلتقي فى ميدان واحد مع كل بحث يدور حول الانسان ، وحول المعرفة . ومن هنا كان التأمل فى اللغة فلسفة وعلما ، وبما أن اللغة حركات وعلامات واشارات ورموز اتخذتها الفلسفة واتخذها العلم اداة للتعبير ، هكذا نرى اللغة فى نفس الوقت ، مادة للبحث واداة له ، اذ انها تأمل ينعكس على ذاته .

واللغة ليست شيئا خاصا بفرد ، بل ملكا مشتركا ، انه (بين) : بين المرء وشعوره ، بين الشعور كحالات واحساسات ، وبين ابرازها كأحداث ، بين المعنويات والماديات ، بين (الانا) والآخرين ، بين الانسان والعالم .

اللغة هي الواسطة العظمى والصغرى فى الغياب وفي الحضور ، فيما كان وفيما هو كائن ، وفيما سيكون .

اللغة تعبير (الانا) ونداء للاخرين ، اي دعوة ودعاء ، فالمرء يعطي كلمة « الشرف » فيلزمه الكلام امام نفسه وامام المجتمع ويقيد سلوكه ويفرض عليه مسئولية ، ورجل لا كلمة له ، رجل ينقصه الضمير ، نعني ان انسانيته غير كاملة ، فالكلام يرتفع من حركة التعبير ، الى مستوى العناصر « الانطولوجية » ربما استطعنا ان نقول : الانسان جسم وروح ولغة (5) .

بعد هذه الفذلكة الفلسفية فى الكلمة والمفهوم والتعبير ، نعود الى جوانب هامة من اللغة فنقول : اذا اردنا ان نعرف اهداف اللغة المكتوبة والمتكلم بها والتي قال عنها ابن جني فى الخصائص ، والجرجاني في التعريفات : انها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . وجدنا انها :

1 ـ هي اداة التفكير الانساني ، فالقاموس اللغوي الذاتي ، يشكل الى درجة كبيرة طبيعة التفكير واتجاهه .

2 ـ نقل الافكار والمشاعر من انسان الى آخر .

وهذان الهدفان ينبعثان من ذات الانسان كوجود مستقل ، ويتجهان اثر ذلك اتجاهين متضادين :

احدهما الى خارج ذات الانسان يقوم بعملية نقل الافكار والمشاعر ، والآخر الى داخل الذات ، حيث يشكل طبيعة التفكير ونوعيته ؛ وكمرحلة لهذين الهدفين اللذين ينبعثان من ذات الانسان ينشأ الهدف الثالث . وهو الهدف الاجتماعي والترابط الانساني ، والتفاهم البشري (6) .

وقد لخص العالم « اولبرت » وظائف اللغة الاجتماعية فقال :

1 ـ انها تجعل للمعارف والافكار البشرية ، قيما اجتماعية بسبب استخدام المجتمع للغة بقصد الدلالة على افكاره وتجاربه .

2 ـ وانها تحتفظ بالتراث الثقافي والتقاليد الاجتماعية جيلا بعد جيل .

3 ـ وانها باعتبارها وسيلة لتعلم الفرد ، تعينه على تكييف سلوكه وضبطه حتى يلائم هذا السلوك تقاليد المجتمع وسلوكه .

4 ـ وانها تزود الفرد بأدوات التفكير ، وما كان المجتمع البشري البصير الى ما هو عليه الآن ، بدون التعاون الفكري لتنظيم حياته ، ولا يتأتى هذا التعاون الفكري ، الا بالتفاهم وتبادل الافكار بين أفراد المجتمع ، والوسيلة العملية الميسورة لهذا التبادل والتفاهم ، هي : لغة الكلام ، وبدونها ينحط التفاهم الى مستوى التعبير عن المدركات المحسوسة والانفعالات الاولية (7) .

فاللغة اهم مظهر لوجود الجماعة والمحافظة على كيانها ، واذا تدرجنا الى مستويات المجتمعات الحضارية نجد ان اللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات هذا المجتمع . فوحدة الغايات والمباديء تدعو الى البحث عن دلالة شاملة للاشياء والافعال ، وعناصر الوجود المختلفة تتجسد فى صورة لفظ واحد مشترك ، يدل على هذا الشيء أو الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ اللغوي ، دوره كرمز مشترك متفق عليه من كافة افراد مجتمع اللغة الواحدة .

فاللغة باعتبارها شرطا ضروريا لتماسك المجتمع ، انما تقع فى كونها من جهة ضربا من السلوك البيولوجي الخصيص بأدق المعاني ، ناشئا تلقائيا من المناشيء العضوية الاولى ، وفي كونها فى الوقت نفسه ـ من جهة اخرى ـ تضطر الفرد الواحد من افراد الناس ان يلتزم بوجهة نظر سائر الافراد الآخرين ، وان ينظر الى الامور ، وان يجري عليها البحث من زاوية

لا تقتصر على فرديته الذاتية وحدها ، بل تكون مشتركة بينه وبينهم ، باعتبارهم شركاء او اطرافا متعاقدة ، ان شئت فهي مشروع مشترك ، لاشك قد يكون عنصرا من عناصر الوجود الفعلي الذاتي هو الموجه والهدف لنشوء اللغة . ولكن الذي لاشك فيه ايضا ، أنها تهم اول ما تهم شخصا آخر ـ المستمع ـ او اشخاصا آخرين ، يوجه اليهم المتكلم الحديث ، فوسيلة التفاهم بين المتكلم والمستمع تقيم شيئا مشتركا ، ومن ثم بمقدار ما يكون للغة من هذا الاشتراك تصبح عامة وموضوعية (8) .

واذا اردنا أن نعرف اللغة ، تعريفا جامعا مانعا ـ كما يقول علماء المنطق والاصول ـ على ضوء تحديد ماهيتها ، فاننا نجد ذلك فى منتهى الصعوبة ، ولو تحقق الوصول الى تعريف جامع مانع ، فسنجد اننا انتهينا الى نص لا يمكن ان يكون تعريفا ابدا ، يقول الدكتور تمام حسان : ان تعدد مظاهر اللغة من صوتية ، الى كتابية ، الى اشارية حركية ، الى اشارية ضوئية ، الى لغة باللمس على طريقة المكفوفين الى غير ذلك ، لابد أن يفرض على نص التعريف الذي نحاوله أن يطول حتى لا يعود تعريفا ، اذ يصبح وصفا مسهبا لعدة امور ، كل منها « لغة » ويبقى بعد ذلك ان يلجأ العلماء فى تعريف اللغة الى بيان وظيفتها (9) .

وقد قال بعض العلماء فى بيان التعريف : ان اللغة وسيلة لايضاح الافكار . وقد رد العالم « تاليران » على ذلك بأن اللغة وسيلة لاخفاء الافكار ، لا لايضاحها. وقد قال علماء آخرون : ان اللغة وسيلة للتعبير . وقد اعترض على هذا التعريف بأن المرء قد يتكلم الى نفسه احيانا ، حتى لا يكون بحاجة الى التعبير عن افكاره ، اذ يكون قد عرفها فعلا ، وادركها ادراكا اعمق مما تستطيع كلماته ان تعبر عنه .

وقال بعض العلماء : ان اللغة افراز حركي ضروري للفرد . وصالح لان يكيف بالكيفيات الاجتماعية ، وبهذا يمكننا أن نفسر كلام المرء الى نفسه ، وكلامه الى صاحبه .

وقال « هنري دولاكروا » : اللغة هي دالة الفكر.

والحقيقة أن اللغة ، فى عمومها ، ذات وظيفة هامة جدا يمكن ان تلخص فى امرين :

1 ـ امر فردي : هو قضاء حاجة الفرد فى المجتمع.

2 ـ امر اجتماعي خالص : هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية . فاما بالنسبة للشق الاول من وظيفة اللغة ، فواضح ان طبيعة التخصيص تبدو فى وظيفة كل فرد ، بحيث لايمكن أن يكون خبازا او نساجا وحدادا ونجارا وصيادا في وقت واحد .

ومن هنا كان على الفرد أن يعتمد فى اموره على غيره من أصحاب هذه المهن ، وأن يتصل بهم لقضاء حاجاته ، ولا سبيل الى هذا الاتصال ، ولا الى قضاء الحاجات الا بواسطة التفاهم ، ولا بد للتفاهم من لغة ولو راقب المرء نفسه يوما واحدا من حقل الاستعمال اللغوي ، لراى كيف يعتمد وجوده الى حد كبير على وجود اللغة ، بل ان مصالح الانسان قد تتوقف على حسن استخدامه للغة ، لا على مجرد الاستخدام .

واما الشق الثاني : من وظيفة اللغة وهو : تهيئة الوضع المناسب ، لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية ، فان اللغة اصل وجذر لكل ما يمكن أن نتصوره من عوامل تكوين المجتمع ، كالتاريخ المشترك ، والدين المشترك ، والادب المشترك ، والفكر والاحساس ، والارادة والعمل المشترك ، اذ لا يقوم شيء من ذلك بدون اللغة ، وكيف يمكن تصور تاريخ بلا لغة ، أو دين بلا لغة ، او فكرة بدونها ، او احساس لايترجم عنه بها ، بعد ان يتم تكوينه بواسطتها ، او ارادة تقوم بغيرها ، أو عمل يتحقق بعيدا عنها .

ان الشركة فى كل اولئك ، هي الحياة الاجتماعية، ولا تتم هذه الشركة بدون اللغة (10) .

ويعتبر بزوغ اللغة وبروزها الى الوجود اثناء عملية تطور البشر وارتقائه من المظاهر القائمة التي تمتاز بما لها من اهمية وخطورة بالغتين .

وذلك ان الوسيلة الوحيدة الفعالة التي نتمكن بها من ادراك معنى الحياة ، وتوضيح معالمها ، ونعت مظاهرها هي اللغة .

فمهمة اللغة هي تمثيل العالم على مرآة تعكسه ، وفلسفة اللغة تنطوي على انعاشها ، وتنسيقها بحيث تصبح مطية للمعاني ووسيلة للاتصال والتفاهم ، ورمزا للحقيقة ، وشارة للواقع .

قال الامام محمد عبده : اللغة مجلى للفكر وترجمان له (11) .

وجاء عن محمد المبارك : ان اللغة سبيلنا الى اكتشاف جواني الامة التي تتكلمها ، واستكناه خصائص روحها التي تكمن وراء برانيها (12) .

ومما هو جدير بالذكر ان انظار العلماء اختلفت ـ فى تعريف جامع مانع للغـــة ـ طبقا للمفاهيم التـــي يدرسونهـــا .

ولذلك نرى فريقا يعرفها على اساس عقلـــي او نفـــي ، ويمثل هذه المدارس ذلك التعريف ، وهو : ان اللغة استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الافكار ونقلها من شخص الى آخر ، ومن مؤيدي هذه المدرسة العالم الامريكي « سابيـــر » . وينظر علماء الفلسفـــة والمنطق الى اللغة باعتبارها الوسيلة للتعبير عن الافكار فيقول الاستاذ جفوتز فى كتابـــه « مبـــاديء دروس المنطق » : ان للغة ثلاث وظائف :

1 ـ كونها وسيلة للتوصيل . 2 ـ كونها مساعدا آليا للتفكير . 3 ـ كونها اداة للتسجيل والرجـــوع .

وينظر علماء المجتمع اليها باعتبار وظيفتها فـــي المجتمع ، فيعرفها العالم اللغوي الامريكـــي (ادجـــار ستير تفنت) بانها : نظام من رمـــوز ملفوظة عرفيـــة بوساطتها يتعاون ويتعامل اعضاء المجموعة الاجتماعية المعينـــة .

ومن التامل فى هذه المجموعة من آراء العلمـــاء يتبين ان تعريف علماء النفس والمنطق يهدف الى ناحية واحدة ، لا يتفق والمطلوب من اللغة فى المجتمع الانـــساني لانها لاتقف عند حد التعبير عن الافكار ، وتوصيلها الى الاذهان كما يقول علماء المنطق لان ذلك يقصر وظيفـــة اللغة على طبقة من الناس هم اهل الفكر ، حال اشتغالهم بامـــور فكريـــة .

ولا يمكن ان يقال ان اللغة اداة لنقل الافكار ، وانما هي وسيلة للتعاون والترابط بين افراد المجتمع ، فاننا نتبين كثيرا من الناس يتكلمون فى موضوعات ، وليس يعنيهم نقل افكارهم الى غيرهم ، وانما يكون القصـــد من حديثهم الترفيه والتسليـــة ، او النظر فى امـــور تخصهم فى ادارة شئونهم .

وبذلك يبـــدو ان راي علماء المجتمـــع بتعريفها تعريفا يتناسب مع وظيفتها فى المجتمـــع هو خيـــر ما تعرف به اللغة ، واذا كان ذلك صحيحا فينبغـــي ان تشير الى تعريف الاقدمين للغـــة : وهـــو انها اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم (13) وهـــذا التعريف للجرجاني وابن جني . ومن الملاحظ ان هذا التعريـــف قد تمشى مع وجهة علماء المجتمع تمشيا دقيقـــا لان الاصوات ما هي الا الرموز الصوتية التي تنبـــيء عـــن مدلولات خاصة للتعبير عما يحتاج اليه الانسان فـــي حياته سواء كان احتياجا عـــاديا كشئون الناس فـــي حياتهم المتمشية مع احتياجاتهم فى كـــل اوقاتهم ، ام كان احتياجا ضروريا كاحتياج الباحث للتعبير عـــن الافكار القائمة بنفسه لتوصيلها الى اذهان الدارسين .

وان اللغة ذات اثر قوي فى حياة المجتمع الانـــساني، لانها السبيل لفهم الاشياء المحيطة بالناس ، والطريـــق لارتباط افراد المجتمـــع بعضهم ببعض ، والموصـــل للافكار القائمة بالاذهان ، والمهيئة لرقي الامم فى شتـــى نواحيهـــا (14) .

وقال (جون لوتز) : الوجود البشري ملتحـــم باللغة. فاللغة ظاهرة انسانية اجتماعية تصاحب سلوك الناس فى كل لحظة ، وترافق المجتمعات فى اطوارهـــا التاريخية المتلاحقة ، فيصيبها ناموس التغير الحتمي الذي يجعلها اداة صادقة للتعبير ، باللفظ والرمـــز والايحاء ، عـــن حياة المجتمعات العقليـــة والحسية ، ومعيارا دقيقا لرقيها او انحطاطها فى ميدان الثقـــافـــة والعلـــم والحضـــارة .

واللغـــة لذلك لاتعرف التحجر ، وهي قـــدرة على العمل ، قدرة كامنة ، وهي لا تفتأ تتغير شكـــلا ومبنى ، تتغير حروفها واصواتها او صيغتها وبناؤها او من ناحية معناها ، فقد تنقل الكلمة من معنى الـــى آخر ، او تضيف الى معناها معنى آخر جديـــدا دون ان تتـــرك الاول .

وان تطور لغة ما مرتبط بتطور الاقـــوام التـــي تنطق بها ، واللغة والتطور عنصران مرتبطان ، وهمـــا سمة المجتمعات منذ اقدم العصور ، ولا سبيل لتفضيل لغة على اخرى ، وانما يكون التفاضل بين الوسائـــل المتبعـــة لتنمية اللغات واغناء تراثها التعبيري .

الامة البدائية حتما لغتها بدائية وغير مصقولـــة ومفتقرة الى عديد من العبارات والالفاظ التي تـــؤدي المعاني الحسية والمجردة ، فهـــي لذلك تقتصـــر على التعبير عن تفكير هذه الامة ووسائلها الثقافية المحدودة وكلما ازداد تفكير المجتمع اتساعا ، وثقافته نمـــوا ، تطورت لغته وازدادت قدرتها على التعبير واعطاء كل سمة لفظـــا مناسبـــا .

ان اللغـــة تمنح الانسان بالاضافـــة الى وراثته البيولوجية خطا آخر للاستمرار ، يجعل الثقافـــة ، وتراكم المعرفة ، امرا ممكنا .

وقد اتاح العلم الحديث للغة ممكنات ووسائـــل متعددة للتعبير عن دقائق الاحكام العقلية فى صورهـــا